

رأس المال والمجتمع الحديث الكاتب والكتاب^(١)

الكتاب:

رأس المال - نقد
الاقتصاد السياسي

المؤلف:

كارل ماركس

المترجم:

فالح عبد الجبار

الناشر:

دار الفارابي بيروت

عدد الصفحات

٣١٤٠

هذا ملحوظ

لمعجم وجيز،

وبسيط، عن كتاب

وكاتب شغل أوروبا، فالعالم، نحو قرن ونصف، وما يزال. فما كاد خصومه يحتفون بقرب أو بالأحرى النهاية المؤكدة للتاريخ، إثر تفكك الاتحاد السوفيتي، وهو ما فعله فوكوياما، وثلة من الاقتصاديين المحققين بانتصار الأسواق على السياسة^(٢)، حتى باغتت الجميع أزمة كبرى، هي الأعتى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥)، فهي تمسّ سائر البلدان الصناعية الرأسمالية. في غضون الاحتفال بظفر التاريخ الليبرالي، قام أكبر مضارب رأسمالي في العالم هو جورج سوروش،



المجري الأصل، أميركي الجنسية، بإطلاق رصاصات تحذير مدوية في كتابه: أزمة الرأسمالية الكونية: خطر محقق بالمجتمع المفتوح^(٣). وهو يفعل ذلك من موقع العارف بخبايا عصر المال والأعمال، من موقع الملياردير اللاعب. ورسالته جداً بسيطة ومقتضبة: رأس المال يهدد بتقويض المجتمع، أو حسب لغته تهدد المجتمع المفتوح انفلات السوق.

ها هنا رسالتان متضادتان: احتفاء بانتصار الليبرالية الطليقة لرأس المال وتحذير بتقويض المجتمع الحر على يد رأس المال الطليق^(٤).

منبع هذا التعارض هو المجتمع الصناعي الحديث نفسه الذي دشنه ظهور رأس المال: تطوير هائل للقوى المنتجة، اكتساح العالم القديم، فتح باب الحريات السياسية، التنظيم (العقلاني للإنتاج) على مستوى الوحدات الأساسية، انضباط المصانع والمؤسسات، البنوك، الخ)، إنماء الثروة، بناء المؤسسات، نشر العقلانية والعلم من جانب. ولكن، في جانب آخر، اندلاع أزمات دورية تفضي إلى تدمير القوى المنتجة (بالأخص جزأها الأهم: البشر والبيئة) بتوسيع جيوش العاطلين، قضم الحريات السياسية بالقسر الاقتصادي، فوضى السوق، التنافس بين الأمم، التوسع الإمبراطوري، الحروب، الثورات، تدمير التوازن الأيكولوجي لكوكب الأرض، الخ (

وانفتحت مجدداً الأبواب للاهتمام بماركس الباحث، وسفره رأس المال، فهو كتاب الأزمة. فما من مفكر أو فكر عُني بأزمة المجتمع الحديث أو بتناقضاته

الجوهرية مثل ماركس. لم يكن مصادفة أن تختار كبرى دور النشر الأوروبية إعادة إصدار رأس المال ضمن سلسلة «كتب غيرت العالم Books That Changed The World».

لعل كتاب رأس المال هو أحد أهم المفاتيح لفك مغاليق المجتمع الحديث الذي برز إلى الوجود، حسب ماركس، منذ القرن السادس عشر، والسعي لفهم مساراته المتقلبة، وتناقضاته المنتظمة، أو بتعبير زيغنيو برزيجنسكي Z. Brzizinski، المستشار الأسبق للأمن القومي على عهد الرئيس كارتر، أن ماركس قدم ألمع نظرية نقدية لتحليل المجتمع الحديث^(٥).

إذا كان الاحتفاء بمجتمع رأس المال قد صدر من طرف أول، والتحذير من مآلات هذا المجتمع من طرف ثان، في هذا المثال أعلاه، فإن ثمة كتاباً آخر يحمل الرسالتين في آن واحد: احتفاء بالرأسمالية الكونية (العولمة)، وخشية من أن يؤدي تشابكها، إلى تأزم المنظومة ولربما انهيارها، عند أية أزمة في أي بقعة من بقاع هذه المنظومة^(٦).

هذا الكتاب الأخير، احتفاء بالرأسمالية الكونية (العولمة)، وضعه اثنان من الاقتصاديين العاملين في أقدم مجلة تعنى بالاقتصاد العالمي The Economist وهو احتفاء ظافر بالعولمة أي رأس المال الكوني، لكنّ الكاتبين بعد الفراغ من نشوة الظفر يختمان بوجوب التحذير من الأزمات القادمة ووجوب الإصغاء إلى الرجل الماكث في هايجيت (المقبرة التي دفن فيها ماركس بلندن) وهي نصيحة ليبرالية اقتصادية بوجوب

الإصغاء إلى أكبر خصم لها.

لا مرأى في أن كتاب رأس المال، حظي من المعجبين والمشايعين عدداً كبيراً. لكنه استجر أيضاً قدراً من النقد من منظومة الليبرالية واليسار الاجتماعي، وقدراً أكبر من الخصومة من خارج هذه الصفوف، وذلك منذ نشر المجلد الأول (عام ١٨٦٧، هامبورغ، ألمانيا) حتى هذه اللحظة.

ولنلاحظ أن المعارك الفكرية الدائرة حول الكتاب، إسناداً، أو نقداً، أو اعتراضاً وحتى تشنيعاً، اختلطت حتى تسعينيات القرن العشرين، باحتدام صراع سياسي - اجتماعي، بين حركات عمالية، منذرة مهددة، في جانب، وحركات ليبرالية، قلقة، خائفة، في جانب آخر. وتعقد الصراع أكثر بواقع تحول الانقسامات الاجتماعية إلى انقسام عالمي بين دول قومية، يعتمد بعضها اقتصاد السوق، ودول قومية أخرى تعتمد الاقتصاد الجماعي الممركز، دول مسلحة بأسنان نووية، خلال حقبة الحرب الباردة. لم تعد المسألة الفكرية صحة أم خطل استنتاجات نظرية محددة، بل بقاء أم زوال النظام الاجتماعي الراهن.

في هذه الاحوال المضطربة، ضاع الكثير من النقاش العلمي، المجرد، النزيه حول كتاب رأس المال، فقد حلت (بتعبير ماركس) الملاكمة المأجورة محل البحث الرصين، من جانب الخصوم أنصار الليبرالية الاقتصادية (تميزاً لها عن الليبرالية السياسية الديمقراطية). هناك استثناءات معينة (كارل بوبر وإلى حد معين ماكس فير). في أوساط اليسار لم يكن الحال بأحسن. فبالبحث

الوعي بالتعقيد، ووعي الاستلاب ووعي الشيئية تمهيداً لكسرهما. وكانت أكبر كباثر لوكاش نقده لأنجلز (كتاب أنتي دوهرنغ) على فشله في بناء تفاعل الذات والموضوع كمقولة أساسية في التاريخ البشري^(٨). فكان ذلك يعدّ مروقاً على العقيدة، تماماً مثلما فعلت الكنيسة بمعارضيتها وأحرقتهم كهرباطقة، وكما يفعل الأصوليون الإسلاميون بنحر الخصوم.

وتكفينا أيضاً الإشارة إلى استبعاد بل التعمية على الإنجازات الفكرية للمدرسة الماركسية النمساوية، التي شرعت منذ أواخر القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠ أبواب التحليل لرأس المال المالي (هيلفردنغ)، أو دراسة الوحدات الجديدة للمجتمع الحديث: الدولة المركزية، والقوميات (أوتو باور Otto Bauer وسواه) أي ظاهرة تشكل الرأسمالية الصناعية في وحدات قومية (أمم). فقد حوربت ثم أهملت هذه المدرسة تماماً لمجرد أنها لم تنتصر سياسياً ولم تحظ بدولة تمددها بالشرعية والموارد على الغرار السوفيتي.

وحسبنا التذكير بمحاولات كارل مانهايم Karl Manheim، في دراسة الإيديولوجيا واليوتوبيا (الطوباوية)، في محاولة فكرية لبناء علم اجتماع المعرفة، استكمالاً لعمل جورج لوكاش حول تشيؤ الوعي والواعي معاً، أي تحولهما إلى أشياء ودراسة تنوع الهويات الاجتماعية وتوسيعها من الطبقات حصراً، إلى الانتماءات الأخرى: القومية، الدين، الجيل، المكان، الفضاء المدني المتنوع وغيرها. زد على ذلك أن مانهايم في دراسته للإيديولوجيا (حرفياً: علم الأفكار) قاده إلى

والسجال قُيد بألف قيد وقيد، باسم «نقاء النظرية»، وكانت هيمنة هيئات الأحزاب المركزية على مقاليد العمل الفكري ضارةً وأحياناً مدمرةً.

حسبنا هنا الإشارة إلى ما لاقاه جورج لوكاش G. Lukacs من كبت وطرود وتشريد حين سعى إلى تفريق الديالكتيك (الجدل) في الطبيعة، الخاضع لضرورة عمياء (هل يفكر الإلكتروني بتغيير مساره؟) والديالكتيك (الجدل) في التاريخ البشري، أو بتحديد أدق في مجرى التطور المجتمعي، حيث يواجه البشر، بوصفهم كائنات مفكرة، ذوات إرادة، خيارات مفتوحة في كل لحظة، خيارات تثلم نصل الطابع الأعمى للضرورة. وكانت فكرته جدّ بسيطة وجدّ عميقة: الفرق بين التاريخ والطبيعة هو أن الإنسان يصنع الأول، ولا يصنع الثاني^(٧). وحسب مايكل تومبسون فإن لوكاش أعاد اكتشاف الديالكتيك، فمعايير فهم الطبيعة عنده تختلف عن معايير تفسير المجتمع. أفعال الطبيعة تتطلب برأيه أشكالاً ثابتة، فوق تاريخية، من العقلانية العلمية المجردة من أي حكم. أما المجتمع فينبغي فهمه كظاهرة تاريخية وعيننا على الحرية التي يحضها لقاطني هذا التاريخ. فتح لوكاش الباب لتضافر الموضوعية والفاعلية الذاتية لا للفرد الواحد بل للفرد الجمعي، وللممارسة (البراكسيس). المجتمع الحديث برأيه يولد، بتشابك علاقاته وتعقيداته، الاغتراب (الاستلاب) من جانب، والشيئية، أي فصل البشر عن نشاطهم وتحولهم إلى أشياء، فتسد باب الوعي. أما النشاط، الممارسة الجمعية للاعتراض الثوري فهي وحدها الكفيلة بتوليد

لأنهم حوّلوا ألمع نظرية نقدية (ماركس) إلى جثة هامدة^(١١).

أما اليوم، بعد زوال «الخطر» المباشر، فثمة حيوية جديدة تدبّ في أوصال البحث العلمي المتجرّد ما يسمح بحدود للبحث أوسع من ذي قبل، في مناقشة وتقدير كتاب رأس المال، بحيوته المدهشة، وأيضاً بشيخوخته.

الهوامش

١ هذا مُجترّأ صغيرٌ من مقدمة المترجم لملحق بمعجم المفاهيم في رأس المال لكارل ماركس.

٢ Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man, Penguin, 1992.

حول تصنيف المدارس في تفسير الليبرالية الكونية، العولمة، و نقدها أو الدفاع عنها، انظر:

Williams I. Robinson, A Theory of Global Capitalism, Class and State in a Transnational World, Baltimore, John Hopkins Univ. Press, 2006, C. el-Ojeili and Patrick Hyden, Critical Theories of Globalization, Palgrave, 2006.

٣ Soros, The Crisis of Global Capitalism: Open Society Endangered, Public Affairs, New York, 1990.

٤ .Soros, op. cit

٥ Zbigniew Brzezinski, Between Two Ages: America's Role in the Technetronic Era, Greenwood Press, 1982

٦ See John Micklethwait, Adrian, Woolridge, A Future Perfect:

اكتشاف أن الإيديولوجيا، بما فيها المنتسبة إلى الحركة العمالية، تحوي مزيجاً من المعرفة والتوق الحلمي، الطوباوي. هذه الأفكار المضافة اعتبرها المتزمتون تسفيهاً لمفهوم الطبقة الماركسي حسب فهمهم الضيق والمشوّه له ما أدى إلى نوع من تحريم^(٩).

وحسبنا الإشارة إلى كبت أو ازدياد محاولات مدرسة فرانكفورت، للإفادة من التطورات النظرية في علم الاجتماع، وعلم النفس، واللسانيات، الخ، لتوسيع التحليل العلمي للمجتمع الحديث (أدورنو، هوركهايمر، إريك فروم، ولاحقاً هابرماس وفرانتس نيومان) التي، ورثت أسئلة وتحليلات لوكاش، واكتشافات مانهايم، وإنجازات المدرسة النمساوية، فضلاً عن إنجازات علم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) وعلم النفس (فرويد، أدلر)، لتبني تياراً عقلياً نقدياً جديداً يسعى بتعبير هوركهايمر، مؤسس مدرسة فرانكفورت (الماركسية الجديدة)، إلى استكمال ما تركه ماركس من غير دراسة وبالتحديد مشكلات البنية الفوقية، أي الدولة، تشكيلات الوعي، القانون، الخ. وهي محاولات، كما سنرى، تسعى إلى الاشتغال في المناطق التي تركها ماركس من غير بحث بسبب المرض، فالوفاء، رغم أنه أدرجها ضمن خططه الدراسية، فضلاً عن دراسة الظواهر الجديدة التي لم يرها والتطورات في الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس مما لم يكن قد أنتج بعد^(١٠).

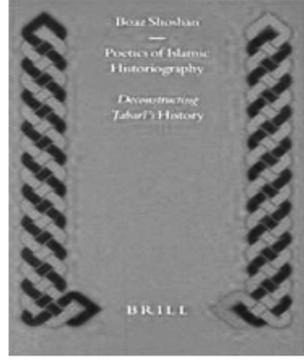
ولا نجد، مرة أخرى، أفضل من برجزيينسكي، في وصف هذا الوضع حين أفصح عن شكره للسوفيت،

شعرية التأرخة الإسلامية

تفكيك تاريخ الطبري

تأليف بواز شوشان

Boaz Shoshan يوضح
بواز شوشان في كتابه
Poetics of Islamic
Historiography –
Deconstructing
Tabari's History
شعرية التأرخة
الإسلامية – تفكيك



تاريخ الطبري (دار بريل، لايدن - بوسطن، ٢٠٠٤) أن الهدف من تأليفه لم يكن الانخراط مرة أخرى في إعادة تركيب تاريخ بدايات الإسلام. ويبدو لي أن التعبير «مرة أخرى» يشير إلى السرديات التي تناولت تاريخ الإسلام قديماً وحديثاً. ولم يكن هدف الكتاب كذلك الانخراط في ذلك المشروع المعروف عن تثبيت صحة حادثة ما تاريخياً. فقد قرر مؤلف الكتاب تعلم شيء جديد حول التأرخة [تدوين التاريخ] historiography الإسلامية المبكرة. لذلك يمكننا القول إن الهدف الأساس من تأليف هذا الكتاب هو تقديم قراءة جديدة للتاريخ تعني بتقديم فهم جديد للافتراضات التي سار عليها الكثير من الذين أسهموا في إنتاج هذا التاريخ عبر ما قدموه من سرديات وكتابات يسميها شوشان أحياناً افتراضات تاريخية. فضلاً عن فهم كل ما من شأنه تقويض مثل تلك

the challenge and hidden promise of globalization, New York, crown business, 1999, 2000.

٧ لوكاش، الطبقة والوعي التاريخي History and Class Consciousness, MIT Press, 1972 أيضاً: أنطولوجيا الوجود

الاجتماعي، Merlin Press، The Ontology of Social Being, 1980,

٨ Michael Thompson (ed.), George Lukacs Reconsidered: Critical Eassays, New York, 2011, Stephen Eric Bronner, Lukacs and the Dialectic,

٩ See Karl Manheim, Utopia and Ideology: An Introduction to .the Sociology of Knowledge

١٠ انظر على سبيل المثال أعمال هوركهايمر، أدورنو، ماركوزه، فرانكس نيومان، وأخيراً أعمال يورغن هابرماس. أول هذه الكتابات هو جدل التنوير Dialectics of Enlightenment.

١١ .Zbigniew Brzezinski, Between Two Ages